الفعل الماضي الواقع حالاً
بين علماء العربية والاستعمال القرآني

بحث تقدم به

م.م. عبد الرزاق علي حسين العكَيـدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله وأفضل الصلاة وأزكى السلام على سيّد الأنام سيّدنا محمّد فخر العالمين ومصباح الظلام، وعلى آله الطاهرين الكرام، وصحبه الشرفاء الأعلام.

وبعد: فقد دار الخلاف بين البصريين والكوفيين في كثير من مسائل العربية، اعتماداً على الأصول التي تمسك بها كل فريق ولم يحد عنها عند تقعيد اللغة. ومن المعروف عن البصريين الدقة في اختيار الشواهد التي قعّدوا اللغة على أساسها، فأخذوا بالغالب منها ووضعوا القاعدة على ضوئها، وما خالف القاعدة حملوه على السماع، ولا يقاس عليه، بخلاف الكوفيين الذين قعّدوها على ضوء الشاهد الواحد. ولكن البصريين كانوا يبالغون أحياناً في التمسك بالقاعدة حتى ألجأهم ذلك إلى كثرة التأويل، وردِّ كثير من القراءات؛ لذلك نجد قراءات كثيرة لا تنطبق عليها قواعدهم. ومما بالغ فيه البصريون الفعل الماضي الواقع موقع الحال، إذ أوجبوا تقدير(قد) معه بحجة أنَّ الماضي وقع وانتهى فلا يصلح للحال. ثم ارتبكوا في تحديد معناها، فمنهم من جعلها لتقريب الماضي من الحال، ومنهم من جعلها للتوقع، ومنهم من جعل التوقع والتقريب متلازمين فيها، وتجاهلوا معناها الرئيس، وهو التحقيق، والذي حاول هذا البحث إثباته مع الماضي الواقع موقع الحال استناداً على القرآن الكريم. وفي الوقت ذاته أجاز الكوفيون وقوع الماضي حالاً على الإطلاق. وقد حاول هذا البحث التوسط بين الفريقين، والاستناد إلى القرآن الكريم في تحديد مدى تطابقه مع قواعد الفريقين، معتمداً في ذلك على آراء النحاة أحياناً، وعلى ما يبدو لي من معنى الآية أحياناً أخرى. وقد توصلت إلى نتائج بيّنتها في ختامه. وبعد فإنّي لا أروم بهذا البحث مجرد مخالفة علماء العربية، أو محاولة التقليل منهم، فإنِّي استعيذ بالله من ذلك، فلهم من الفضل ما لا نرقى إلى ذرّة منه، وما

رمته هو محاولة الوصول إلى حقيقة معنى الفعل الماضي الواقع موقع الحال، وأنا لا جزم بأنَّ ما وصلت إليه من نتائج هو الحق، وإنما هو ما بدا لي وارتأيت ، فإن كان صواباً فمن عند الله وفضله، وإن كنت قد جانبت الصواب فزلّة نفسي. والحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

الباحث

أجاز النحاة مجيء الحال مفردةً وجملةً اسميةً كانت أم فعلية ، ولم يختلفوا في هذا ا في المصدر الواقع موقع الحال، وبعض الجمل التي فعلها ماضٍ ، أو مستقبل . والذي يهمنا هنا الفعل الماضي، والفعل الماضي الذي يصلح وقوعه حالاً على قسمين :

أولاً : الفعل الماضي المنفي : وهو أن يكون مسبوقاً بنفي، نحو : جاءني زيدٌ ما ركب غلامُ ، فالماضي في هذه الحال لا يحتاج إلى(قد)، فهي من حيث المعنى لا يصلح تقديرها؛ لأنّ (قد) للتحقيق و(ما) للنفي والجمع بين نفي الفعل وتحقيقه في آنٍ واحدٍ منافٍ للمنطق. وقد علل الفرّاء عدم الجمع بينهما بقوله : (إذا رأيت فَعَلَ) بعد كان) ففيها قد) مضمرة، إلّا أن يكون مع كان) جحد فلا تضمر فيها (قد) مع جحد؛ لأنها توكيد ، والجحد لا يؤكد، ألا ترى أنك تقول : ما ذهبت ، ولا يجوز : ما قد ذهبت)) .

ينظر : شرح ابن عقيل : ٤٠ ،٤١ ، شرح التصريح : ٨٠ ،٨١ .

[٢] معاني القرآن للفراء : ٩٦ .

وفي رأيي أن السبب في جواز وقوع الماضي المنفي ، الاً بالإضافة ى عدم صحة تقدير(قد) ــ هو أن الماضي لا يُنفى إلّا بـ(ما)، أو(إن)، أو (لا)، والكثير ي (ما) نفي الماضي القريب من الحال ، وفي (إنْ) نفي الماضي القريب من الحال ، و(لا) قد تنفي الماضي المراد به الاستقبال .

ثانياً: الماضي المثبت : وهو على ثلاثة قسام :

. أن يكون مسبوقاً بـ(إلّا)، كقوله تعالى : ﴿**وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ (الحجر ١)، والسبب في صحة وقوعه حالاً ما ذكره الرضيّ بقول : ((وإذا كان الماضي بعد (إلّا) فاكتفاؤه بالضمير من دون الواو و(قد) أكثر، نحو : ما لقيتُهُ إلّا أكرمنِ ؛ لأنّ دخول (إلّا) في الأغلب الأكثر على الأسماء، فهو بأو ل : (إلّا مكرماً لي)، فصار كالمضارع المثبت)) ، وعلله الصبّان بالتعليل نفس .

' . أنْ يكون متلوّاً بـ(أو)، نحو : لأضربنَّهُ ذهب أو مكث . وجملة الحال هذه في تقدير

---

[1] معاني النحو : : ٦٤ .

[2] ينظر : معاني النحو : : ٧١ .

[3] ينظر : المصدر نفس : : ٧٧ .

[4] هذه الأحوال تُفهم من كلامهم عن الجمل الواقعة حالاً،متى تلزم الواو والضمير ومتى لا تلزم. ينظر في ذلك : شرح التسهيل : ' ٧٦' . شر ح الرضي على الكافية (تحقيق: يوسف حسن عمر): ٢ ٤٤،٤٥،٦ : ، شرح التصريح : ١١ ١٢، ؛ شرح الأشموني(مع حاشية الصبان : ' ٨٠' .

[5] شرح الرضي على الكافية (تحقيق : يوسف حسن عمر : ' ٦ : .

[6] ينظر : حاشية الصبان على شرح الأشموني : ' ٨٠' .

شرط، أيِ : (إنْ ذهبَ وإنْ مكثَ) ، والشرط ــ كما يقول الدكتور فاضل السامرائي ــ قد يدل على لحال ، فيكون معنى المثال السابق : لأضربه على أيّة حالٍ أجده عليها.

ّ . أن يكون غير الحالتين السابقتين، ولكنه مسبوقٌ بـ (قد)؛ لأنّ قـ) عند البصريين تقرّبه من الحال .

أمّا إذا خلا من (قد) فقد اختلف النحاة في جواز وقوعه حالاً، ونقل لنا ا و البركات الانب ي هذا الخلاف قائلا : ((ذهب الكوفيون إلى أنّ الفعل الماضي يجوز أن يقع حالاً، واليه ذهب أبو الحسن الأخفش من البصريين. وذهب البصريون إلى أنّه لا يجوز أن يقع حالاً، وأجمعوا على أنّه إذا كانت معه قد) أو كان وصفاً لمحذوفٍ فإنه يجوز أن يقع حال) . والذي راه أن قول : (أو كان وص ا لمحذوف)) غير دقيق؛ لأن المحذوف هو الذي يكون حالاً، والفعل الماضي يكون وصفاً لذلك المحذوف، وقد صرّح بذلك في قول : وصفاً لمحذوف . إلّا إذا أراد أنّ الصفة والموصوف كالشيء الواحد.

فالخلاف ــ إذاً ــ محصور ي الفعل الماضي المثبت إ ا لم يكن مسبوقاً بـ قد . وقد تناقلت كتب النحو نسبة جواز وقوع الماضي المجرّد من قد) حالاً ى الكوفيين، والأخفش الأوسط، ولم أجد في كتاب (معاني القرآن) للأخفش ما يثبت قوله بذلك، أو عدمه ولكنّ المبرّد ــ فيما وقفت عليه من المصادر ــ أقدم من نسب إليه هذا الرأي، وتابعه في ذلك النحاة الذين جاءوا بعده، فقد نسبه إليه عند حديثه عن الجمل التي تأتي بعد المعارف بقول :

---

[١] ينظر : شرح التصريح : ١٢، ، حاشية لصبان : ' ٨٠' .

[٢] ينظر : معاني النحو : ٨، .

[٣] ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف : ٦١ (مسألة ٢')، شرح المفصل : ' ٦، ، مغني اللبيب : ٧٢' .

[٤] الإنصاف في مسائل الخلاف : ٦٠ (مسألة ٢").

((فإن قلتَ : فأجرِ (كان) بعد المعرفة، و جعلها حالاً لها، فإنّ ذلك قبيح وهو على قبحه جائز في قول الأخفش)) .

أما نسبته إلى الكوفيين، فأرى أنّها لا يمكن ن تُعمم على جميع الكوفيين، فالفرّاء ــ وهو من رؤساء المذهب الكوفي ــ لم يقل بذلك، بل وافق البصريين في وجوب وجود (قد) مع الفعل ظاهرةً، أو مضمرةً ، وعبَّر عن ذلك بقوله : ((والعرب تقول : (أتاني ذهب عقله)، يريدون : (قد ذهب عقله). وسمع الكسائي بعضهم يقول : فأصبحتُ ظرتُ إلى ذات التنانير . فإذا رأيت (فَعَلَ) بعد كان) ففيها قد) مضمرة)) .

واحتج البصريون ومن تابعهم على عدم صحة مجيء الماضي حالاً ما لم تكن معه (قد) بأنّ الفعل الماضي لا يدل على الحال وقت الإخبار به، وإنما هو وقتٌ مضى ، واحتج الكوفيون بالسماع والقياس.

فالسماع كقوله تعالى : ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا**﴾ (النسا ١٠).

فــ(حَصِرَتْ) في موضع الحال. وكقول أبي صخر الهذلي :

وإنّي لتعْروني لذكراكِ نفْضَةٌ كما انتفضَ العصفورُ بلَّلَهُ القَطْرُ[4]

فــ(بلَّلَهُ) في موضع الحال.

---

[1] المقتضب : / ٢٣ .

[2] معاني القرآن للفرّا : ٩٥ ٩٦ .

[3] ينظر: المقتضب : / ٢٣ ، الإنصاف في مسائل الخلاف ٦١ (مسألة ٢)، التبيين عن مذاهب النحويين : ٨٦ (مسألة ٣).

[4] ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف : ٦٠ (مسألة ٢)، شرح المفصل : ٧ ، شرح التسهيل : ٨٦ .

وأما القياس، فيرون أنّ كل ما جاز أن يكون صفةً للنكرة جاز أن يكون حالاً للمعرفة، ولأنّ الفعل الماضي يقع صفةً، فإنّ وقوعه حالاً جائزٌ أيضـ .

و تابع الكوفيين في ذلك عدد من النحاة، كابن مالك الذي أيّد بـ دة مجيء فعل الماضي حالاً مع خلوه من قد) إذ قال : ((وزعم قوم أنّ الفعل الماضي لفظاً لا يقع حالاً وليس قبله (قد) ظاهرة إلّا وهي قبله مقدرة. وهذه دعوى لا تقوم عليها حجـ ، وأيّد الرضيّ ما ذهب إليه الكوفيون ، وكذلك المرادي ، وأبو حيّان بقو . : وإضمار(قد) قولٌ للبصريين، ومذهب الكوفيين والأخفش أنّ الماضي يقع حالاً ولا يحتاج إلى إضمار قد)، وهو الصحيح، ففي كلام العرب وقع ذلك كثير ، واليه ذهب الخضريّ أيضـ .
أيضـ .

أما مَن تابع البصريين فقد ـاول التماس وجهٍ لما جاء من الفـ ل الماضي في موضع الحال من غير (قـ ، بتقدير (قد)، أو تقدير موصوفٍ محذوف، أو غير ذلك. ويتجلى ذلك في تخريجهم ما احتج به الكوفيون، لاسيما قراءة الجمهور[٧] قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ..... ﴾ النسا ١٠ . فالجملة الفعلية حَصِرَتْ صدوره) في موضع حال عند الكوفيين، ومن تابعهم من غير تقديرٍ أو تأويلٍ، ومن لم يرتضِ هذا الرأي ذهب إلى تأويلها.

---

[١] ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف ٦٠ ٦١ (مسألة ٢)، شرح المفصل :
. ٧،

[٢] شرح التسهيل ٨٦ .

[٣] ينظر: شرح الرضي على الكافية (تحقيق : يوسف حسن عمر : ٥ .

[٤] ينظر : الجنى الداني : ٧١ .

[٥] البحر المحيد : ١٥ .

[٦] ينظر: حاشية الخضري : ٤٩ .

[٧] ينظر: البحر المحيد : ٣٠ .

وقد اخترنا هذه الآية لأنّ الجدل دار حولها كثيراً، حتى كأنّه لم يرد من الفعل الماضي حالاً من دون (قد) إلّا هذه الآية بالرغم من كثرة ما جاء من آيات في ذلك وسنذكر طائفة منها لاحق ، ولسببٍ آخر هو أنّ حمل هذه الآية على الحال أسلم الوجوه التي أوّلت بها. ولبيان ذلك نذكر الوجوه التي أوّلت بها وهي :

الأول: أنّ فيها (قد) مضمرة، وعلى هذا يصح وقوع الفعل حَصِرِ) حالاً من الضمير المرفوع في (جاؤوكم)، وهو (الواو).

وأشار إلى هذا الوجه الزجّاج، ونسبه إلى النحويين قائلاً : ((معنا : أو جاؤوكم قد حصرت صدورهم؛ لأن (حصرت) لا يكون حالاً إلّا بـ (قد))) ، وتبعه في ذلك النحّاس ، ومكي القيسي ، والزمخشري ، والعكبريّ بقوله : والثالث : أنّ قد) معه مقدرة، أي : (قد حصرت)، ونحن نجوّز ذلك)) ، وابن يعيش ، ونسبه المراديّ إلى المبرّد ، ولم أجد المبرد يذكر رأياً كهذا عند حديثه عن الآية في كتابه (المقتضب)، وتوهم الدكتور طه محسن حين خرّج هذه النسبة في هوامش تحقيقه لكتاب (الجنى الداني)

---

[1] ينظر هذا البحث: ٨ ، ٩ ، ٢٠ الهامش رقم .

[2] معاني القرآن وإعرابه : ٢/ .

[3] ينظر : معاني القرآن للنحاس : ٥٦ .

[4] ينظر: مشكل إعراب القرآن : ٠٥/ .

[5] ينظر : الكشاف : ٢٠ .

[6] التبيين عن مذاهب النحويين : ٣٨٩ (مسألة ٣).

[7] ينظر : شرح المفصل : ٧ .

[8] ينظر : الجنى الداني : ٧١/ .

بالإشارة إلى كتاب (المقتضب : ٢٣ ـ ٢٤) ، والمبرد لم يتطرّق إلى هذا الوجه إطلاقاً.

ومن الغريب أن ينسب ابن هشام إلى الأخفش الأوسط تخريج الآية على إضمار قد ، إذ قال : ((قال جماعة منهم الأخفش : هي حال من فاعل جاء) على إضمار (قد))) . وكل المصادر التي وقفتُ عليها أشار أصحابها إلى أنَّ الأخفش يوافق الكوفيين في عدم إضمار (قد) مع الفعل الماضي الواقع حالاً.

كما أشار إلى هذا الوجه الآلوسي ضمن عدة وجوه .

وهذا الوجه يؤخذ عليه تقدير محذوف، و الأصل عدم التقدير) . وتقدير (قد) ليس بحجة على الكوفيين؛ لأنّه كما قال العكبري ــ آنفاً ــ عن تقدير (قد : ((ونحن نجوّز ذلك))، يمكن للكوفيين القول : إنّنا نجوّز عدم تقديرها.

الثاني: أنّ جملة (حصرت صدورهم) في موضع جر صفة. وانقسم الذين قالوا بذلك على قسمين :

. إنّ الجملة في موضع جر صفة لــ (قوم) محذوف، فيكون (قوم) المحذوف حالاً من ضمير الواو في جاؤوك . وقد وهم أبو البركات الأنباري حين قال : أن تكون صفة لــ(قومٍ) مقدّر، ويكون التقدير فيه : (أو جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم ، والماضي إذا وقع صفةً لموصوفٍ محذوفٍ جاز أن يقع حالاً بالإجماع)) ، فقوله : و ماضي إذا وقع

---

[1] ينظر : الجنى الداني : ٢٧١ هامش رقم ٠٨)، ويراجع كلام المبرد في المقتضب : : ٢٣ ـ ٢٤ .

[2] مغني اللبيب : ٢/ .

[3] ينظر : روح المعاني : ١٠ .

[4] مغني اللبيب : ٧٢/ .

[5] الإنصاف في مسائل الخلاف : ١٦٢ (مسألة ٢).

صفة.....الخ)، غير دقيق؛ لأنّه ليس في المحذوف هنا دلالة على أنّ الماضي حال، وإنما هو صفة لـ (و) المحذوف الذي هو الحال، إلّا إنْ كان قد قال ذلك من قبيل أن الصفة والموصوف كالشيء الواحد، ومع هذا لا يكون حالاً أيضاً، وإنما هو تابع للحال أو جزء منه، والذي سوّغ للحال هو (قوم) المحذوف وليس الفعل الماضي.

ونسب الزمخشري هذا الوجه إلى المبرد بقوله : ((وجعله المبرد صفة لموصوف محذوف على : (أو جاؤوكم قوماً حصرت صدوره))) ، وتابعه في ذلك أبو حيّان، ونسبه إلى المبرد أيضاً فقال : ((وعن المبرد قولان : أحدهم : أنّ ثَمَّ محذوفاً هو الحال، وهذا الفعل صفته، أي : (جاؤوكم قوماً حصرت صدوره))) . ولم أجد هذا القول عند المبرد، فقد تحدث عن في كتابه المقتضب ، ولم يذكر هذا القول أو يلمّح إليه . وممن ذهب إلى تخريج الآية على هذا الوجه العكبري بقوله : نقدّر أنّه وصفٌ، ولكن الموصوف محذوف تقدير : (أو جاؤوكم قوماً حصرت)، فـ قوماً) هو الحال، و(حصرت) نعت له ، وأشار الآلوسي إلى هذا الوجه أيضاً .

والذي أراه أنّ هذا الوجه فيه ضعف من جهتين، أحدهم : أنّ الحال لا تحذف إلّا بوجود قرينة تدل عليها، وأكثر ما يكون هذا الحذف إذا كانت قولاً يغني عنه مقوله المذكور في الجمل ، كقوله تعالى : ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ

---

[1] الكشاف : ٢٠ .

[2] البحر المحيط : ٣٠ .

[3] يراجع : المقتضب : ٢٤ .

[4] التبيين عن مذاهب النحويين : ٨٩ مسألة ٣).

[5] ينظر روح المعاني : ١٠ .

[6] ينظر : شرح الأشموني (مع حاشية الصبان : ٨٧ .

مِنْ كُلِّ بَابٍ۞ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعـ : الآيـــاتـ ٢٣ ــ ٤' ، أيِ : (قائلين سلامٌ عليكم).

والجهة الأخرى : أنّ لحذف خلاف الأصل ، وجواز الحذف في بعــض المسائل لا يعني أنّه يخرجه عن مخالفة الأصل، ولكن لا بأس بـــه إن جـــاء بما يحسّن المعنى أو يعين على صحة القاعدة، كما يقول ابن مالك : ((وحـــق المحذوف المقدر ثبوته أنْ يدل على معنى لا يُدرك بدونـ ›› . فمـــا المعنـــى الجديد الذي يُدرك في تقديرهم (قوماً) محذوفاً ؟ والجواب ــ فـــي رأيـــي ــ هو لا شيء؛ لأنّ قولـ : جاؤوک) ضمير (الواو) فيه دلَّ علـــى أنّ الـــذين جاؤوا هم ومٌ أو جماعة، و (حصـ رت صدورهـ) دلت على أنّ حال هـــؤلاء القوم (ضائقة صدورهم)، فلا حاجة أنّ نقدّر محـــذوفاً، ونتـــأوّل مخـــالفين الأصل بذلك لنصل في النهاية إلى المعنى نفسه ذ ل التقدير ــ والله أعلم ــ.

. إنّ الجملة في موضع جر صفة لـــ قو) في أول الآية. وأشار إليـــه مكي القيسي من دون نسبة بقولـ : (وا ل : حصرتـ) في وضـــع خفـــضٍ نعتٌ لـ (قو))› ، وهو أحد الوجوه التي خرّج بها أبو البركـــات الأنبـــاري الا ية، إذ ال : (أنْ تكون صفةً لـــ قو) المجرور في أول الآيـــ › . وإليـــه ذهب العكبري بقولـ : هو جرٌّ صفة لـــ(قوم)، وما بينهمـــا صـــفة أيضـــاً؛ و(جاؤوكم) معترض، وقد قرأ بعض الصحابـ : بينكم وبينهم ميثاقٌ حَصِرَتْ صدورُهـ) بـ ذف أو جاؤوک))› .

---

[١] ينظر : الأشباه والنظائر : ٠٢ .

[٢] شرح التسهيل : ' ٨٦' .

[٣] مشكل إعراب القرآ : ٠٥' .

[٤] الإنصاف في مسائل الخلاف : ١٦٢ (مسألـ ٢ˇ).

[٥] التبيان في إعراب القرآ : ٧٩ˇ ، و ظر : البحر المحيد : ˇ ٣٠ˇ .

وهذه القراءة لسيدنا بيّ بن كعب ﷺ ، ولكنها ذُكرت بحذف (أو اؤوك)ء د النحاس ، والعكبري ــ كما مرّ آنفاً ــ، وذكر ها الزمخشري ، وأبو حيان ، وابن هشام[٤] بحذف (أو) فقط.

ويُفهم من ردِّ الآلوسي مثل هذا لوجه أ ه يُستشهَد بقراءة حَصِرات ، ؛ (حاصِراتٍ) على صحته، على اعتبارهما صفتين مجرورتين، إذ قال : وكذا قراءة (حَصِراتٍ)، ؛ (حاصِراتٍ)، واحتمال الوصفية السببية لـ(قوم)؛ لاستواء النصب والجر بعيد)، . وأرى الآلوسي محقاً في عدم إجازة هذا الوجه؛ لأن حمل القراءتين الأخيرتين على الوصف ضعيف؛ لأن فيه الفصل بين الصفة والموصوف بـ(أو جاؤوكم)، و لصفة والموصوف كالجزء الواحد، لا يجوز الفصل بينهما إلّا في ضرورة الشعر ، والقرآن الكريم منزّهٌ عن الضرورة. فالعطف على(قوم) في الآية لا يستقيم، والقراءتان تُحملان على الحال من ضمير الواو في (جاؤوكم)، من غير ضرورة، ولا إشكال في ذلك، فالكسرة علامة النصب في جمع المؤنث السالم.

وأما ما ذهب إليه العكبري من جعل (حصرتْ) صفةً لـ قو ، و (جاؤوكم) جملة اعتراضية على اعتبار أنّ الجملة الاعتراضية يصح وقوعها بين الموصوف وصفته. أراه أنّ المعنى يتعارض معه ــ والله أعلم ــ، فقد

---

[١] ينظر : معاني القرآن للنحاس : ' ٥٦ .

[٢] ينظر : الكشاف : ٢٠ : .

[٣] ينظر : البحر المحيد : ' ٣٠' .

[٤] ينظر : مغني اللبيب : ' ٢' .

[٥] وهي قراءة الضحّاك. ينظر : مختصر في شواذ القراءات : ٨' .

[٦] وهي قراءة جناح بن حُبيش. ينظر : المصدر نفسه : ٨' .

[٧] روح المعاني : ١٠ .

[٨] ينظر : الأشباه والنظائر في النحو : ' ٧٧' .

ذ ر البيضاوي في تفسير يَصِلون) قائلا : (يتصلو ن وينتهون إلى قومٍ عاهدوكم ويفارقون محاربتكم)) ، وقال في تفسير (جاؤوكم : ((عطف على الصلة، أي : أو الذين جاؤوكم كافين عن قتالكم، وقتال قومهم)) ، ونتيجة ذلك أنّ المستثنى من القتال صنفان ص نف لحقوا بالقوم الذين عاهدوا سيدنا النبيّ ﷺ على عدم قتال المسلمين، وصنف أتوا إليه ﷺ لا يريدون قتال قومهم، ولا قتال المسلمين وهم بنو مدلج ، وقيل هلال بن عويمر . وعبّر البيضاوي عن هذين الصنفين بقول: استثنى مِنَ المأمور بأخذهم وقتلهم مَنْ ترك المحاربين فلحق بالمعاهدين، أو أتى الرسول ﷺ وكفّ عن قتال الفريقين) .

ومن هنا يتبين لنا أن (حصرت) خاصٌ بمن جاؤوا إلى سيدنا النبيّ ﷺ ، فإذا جعلناها صفة لـ(قوم) فإنّها تعود على الصنف الأول ــ والله أعلم ــ.

وتغيّر المعنى ــ في رأيي ــ ينطبق على ما حتج به العكبري من قراءة سدنا أُبيّ برواية حذف أو جاؤوك) كلها. أمّا رواية حذف (أو) فقط فهي لا دل ــ برأيي ــ على أنّ حصرت) في موضع جر صفة لـ قو ؛ لذلك خرّجها الزمخشري على الحال، فقال : وفي قراءة أُبي : بينكم وبينهم ميثاقٌ جاؤوكم حَصِرتْ صدوره ، بغير (أو)، ووجهه أنْ يكون (جاؤوكم) بياناً لـ(يصلون)، أو بدلاً، أو استئنافاً، أو صفةً بعد صفة لـ قو . حصرت صدوره) في موضع الحال بإضمار (قد))) .

---

[1] تفسير البيضاوي : ' ٣١ .

[2] المصدر نفسه : ' ٣٢ .

[3] ينظر : الكشاف : ٢٠ .

[4] ينظر : معاني القرآن للنحاس : ' ٥٥ .

[5] تفسير البيضاوي : ' ٣٢ .

[6] الكشاف : ٢٠ .

والذي يدل على أنّها ليست صفة لــ قو) في قراءة سيدنا أُبــيّ بروايــة حذف (أو) أنّنا إذا جعلنا (جاؤوكم) صفة لــ(قوم)، لا تصلح (حصــرت) أن تكون صفة لــ قو ؛ لاختلال المعنى على ما ذكرنا ســابقاً، وإذا جعلناهــا بدلاً أو استئنافاً، فإنّنا سنفصل بــين الصــفة والموصــوف بغيــر الجملــة الاعتراضية، وهذا غير جائز؛ لأنّهما كالشيء الواحــ ، أمّــا إذا قلنــ : إنّ (جاؤوكم) بيانٌ لــ(يصلون)، فإنّ هذا لا يجوز؛ لأنّ النحاة منعوا أنْ يكــون عطف البيان في الجمل .

كما يمكن أن يُحتج على العكبري بـ أنّ مــا يؤيــد إرادة الحــال قــراءة حَصِرات ، وقراءة (حاصِراتٍ)، اللتان ذكرناهما ســابقاً، وقــراءة الحســن البصري : حَصِرَةً صدورهم .

الثالث: أنّ المراد بـ حصرت صدوره) الدعاء، فتكون جملةً اعتراضية لا محل لها من الإعراب. وأول من ذهب إلى هذا الوجــه المبــرّد بقولــ : ((.....ولكنّ مخرجها ــ والله أعلم ــ إذا قُرئت كذا الــدعاءُ، كمــا تقــول : (لُعِنوا، قُطِعَتْ أيديهم). وهو من الله إيجاب عليه ، وتابعه في ذلك مكــي القيسي ، وأبو البر ات الأنباري بقول : ((أنْ يكون محمولاً على الــدعاء، لا على الحال، كأنّه قال : (ضيّقَ الله صدوره ، كما يقال : جاءني فلانٌ وسّــع الله رزق)..... فاللفظ في ذلك كله لفظ الماضي ومعناه الدعاء، وهذا كثيــرٌ في كلامه ، وقال ه العكبري أيض .

---

[١] ينظر : الأشباه والنظائر في النحو : ' ٧٧' .

[٢] ينظر : مغني اللبيب : ' ٩ ، شرح التصريح : ' ٥٢ ، معاني النحو : ' ٨٥ .

[٣] ونُسبت إلى يعقوب أيضاً. ينظر : النشر في القراءات العشر : ' ٥١' .

[٤] المقتضب : ٢٤ . وينظر : معاني القــرآن للنحــاس : ' ٥٥ ، البحــر المحــيد : ' ٣٠' ، روح المعاني : ' ١٠ .

[٥] ينظر : مشكل إعراب القر : ' ٠٥' .

[٦] الإنصاف في مسائل الخلاف : ١٦٢ (مسأل ' ٢).

ويؤخذ على هذا الوجه ارتباك المعنى معه، وبهذا ضعّفه ابن هشام بقوله: ورُدَّ بأنّ الدعاء عليهم بضيق قلوبهم عن قتال قومهم لا يتّ.))، وبمثله ردَّ الآلوسي هذا الوجه. وأرى أنّ ابن هشام، والآلوسي محقّان في ردّهما؛ لأنّ المعنى سيكون ــ والله أعلم ـ: ضيّق الله صدورهم عن مقاتلتكم ومقاتلة قومهم. فعدم مقاتلتهم قومهم لا يخدم مصلحة المسلمين قياساً بمقاتلتهم إيّاهم، بل العكس، ولو كان هناك دعاءٌ لدُعيَ عليهم بمقاتلة قومهم؛ لأنّ ذلك يشدُّ من أزر المسلمين، ويضعف من قوة الكافرين بأنْ يُفتَتنوا بالقتال فيما بينهم.

الرابع: أنْ تكون جملة (حصرت صدورهم) بدلَ اشتمالٍ من: (جاؤوكم).

وذكر هذا الوجه أبو حيّان، ونسبه إلى العكبري عند حديثه عن الوجوه التي أجازها العكبري، فقال: ((وأجاز أيضاً أن يكون (حصرت) بدلاً من (جاؤوكم)، قال: بدل اشتمال؛ لأنّ المجيء يشتمل على الحصر وغيره)). ولم أجد للعكبري قولاً كهذا في كتابيه (التبيان في إعراب القرآن)، و التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين. وأشار إلى هذا الوجه الآلوسي أيضاً من دون أن ينسبه إلى أحد.

وقد ردَّ ابن هشام هذا الوجه بقوله: وقيل بدل اشتمال من جاؤوكم؛ لأنَّ المجيء مشتمل على الحصر، وفيه بعدٌ؛ لأنَّ الحصر من صفة الجائين)) .أي أنَّ الحصر من صفات الذين جاؤوا، لا من صفات المجيء.

---

[١] ينظر: التبيين عن مذاهب النحويين: ٣٨٩ (مسألة ٣٠)، التبيان في إعراب القرآن: ٧٩.

[٢] مغني اللبيب: ٢.

[٣] ينظر: روح المعاني: ١٠.

[٤] البحر المحيط: ٣٠.

[٥] ينظر: روح المعاني: ١٠.

[٦] مغني اللبيب: ٢.

خامس: أنَّ جملة (حصرت) بيانٌ لــ(جاؤوكم).

وذكر هذا الوجه الزمخشري ولم ينسبه إلى أحد، إذ قال : وقيل : هو بيان لـ (جاؤوك))، . وأشار إليه الآلوسي .

والذي أراه أنَّ هذا الوجه مردودٌ؛ لأنَّ النحاة جعلوا من شروط البيان ألّا يكون جملةً ولا تابعاً لجملة.

لسادس: أنْ يكون خبراً بعد خبر.

وأول من أشار إلى هذا الوجه الزجّاج بقوله : (وقال بعضهم : (حصرت صدورهم) خبر بعد خبر، كأنّه قال : (أو جاؤوك ، ثم أخبر فقال : حصرت صدورهم أنْ يقاتلوك))، . والمقصود من قوله : خبر بعد خبر) أنَّها جملة خبرية مستقلة. وقد نسبه النحّاس إلى الزجّاج بقوله : وقال أبو إسحق : يجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، ، وذكر أبو البركات الأنباري هذا الوجه ضمن عدة وجوه ، ونسبه أبو حيّان إلى الزجّاج أيضاً بقوله : وقال الزجّاج : حصرت صدورهم) خبر بعد خبر ، . وكلام الزجّاج واضح، وهو وهو أنَّه لم يقل ذلك كما ذكر النحّاس، وأبو حيّان، وإنّما نسب القول إلى بعضهم.

وكل ما تقدم ذكره من وجوه؛ وما صاحبها من ضعف، وتكلّف ما هو إلّا محاولة لتهرّب من القول بوقوع الفعل الماضي حالاً من دون (قد). ولا شك بعد ذلك في أنَّ الآية محمولة على الحال، ويؤيد هذا القراءات التي قُرئت

---

[١] الكشاف : ٢٠: .

[٢] ينظر : روح المعاني : ١٠ .

[٣] معاني القرآن وإعرابه : ٣/ .

[٤] معاني القرآن للنحاس : ٥٥ .

[٥] ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف : ١٦٢ (مسألة ٢).

[٦] البحر المحيد : ٣٠ .

بها والتي ذكرناها سابقاً، فكلها تدل على أنَّ (حصرت) في الآية في موضع الحال، يضاف إلى ذلك أنَّه لا تكلف فيه بخلاف الوجوه الأخرى.

إنَّ الذي دفع البصريين إلى تقدير قد ، هو أنّها ـ كما يقولون ـ تقرّبه من الحال .

وأشار النحاة إلى أنَّ من معاني (قد : تقريب، أي تقريب زمن الفعل الماضي من زمن الحال. وأشار إلى ذلك أبو البركات الأنباري ، والعكبري ، وذكره ابن الخبّاز بقوله : ((قد : وتدخل على الماضي والمضارع، فمعناها في الماضي تقريبه من الحال، وهو زمان إخبارك به)) ، وقال ابن يعيش : ((قد) حرف معناه التقريب، وذلك أنّك تقول : (قام زيد)، فتخبر بقيامه فيما مضى من الزمن، إلّا أنَّ ذلك الزمان قد يكون بعيداً، وقد يكون قريباً من الزمان الذي أنت فيه، فإذا قربته بـ(قد) فقد قربته مما أنت فيه ولذلك قال المؤذن : قد قامت الصلاة ، أي : قد حان وقتها في هذا الزمان)) ، وقال في موضع آخر : ((.... فإنْ جئت معه بـ(قد) جاز أن يقع يقع حالاً؛ لأنَّ (قد) تقرّبه من الحال)) ، وتحدّث الرضيّ عن هذا المعنى بقوله : ولمثله التزموا (قد) إما ظاهرة أو مقدرة في الماضي إذا كان حالاً..... ولفظة (قد) تقرّب الماضي من حال التكلّم فقط، وذلك لأنَّه كان يُستبشع في الظاهر لفظ الماضي والحالية)) ، وذكر المرادي (قد) وإفادتها

---

[١] ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف : ١٦١ (مسألة ٢′)، شرح المفصل : ′ ٦، ، مغني اللبيب : ′٧٢ .

[٢] ينظر : الإنصاف في مسائل الخلاف : ١٦١ (مسألة ٢″).

[٣] ينظر : التبيين عن مذاهب النحويين : ٣٨٧ (مسألة ٣،).

[٤] الغرّة المخفيّة في شرح الدرة الألفية : ′٨ .

[٥] شرح المفصل : ٤٧ ، .

[٦] المصدر نفسه : ′ ٦، .

[٧] شرح الرضي على الكافية (تحقيق : يوسف حسن عمر : ′ ٤: .

معنى التقريب قائلاً: لا ترِد للدلالة عليه إلّا مع الماضي؛ ولذلك تلزم غالباً مع الماضي إذا وقع حالاً)، ، وإليه أشار ابن هشام في حديثه عن معاني قد) بقوله : (الثاني: تقريب الماضي من الحال، فتقول : قام زيدٌ)، فيحتمل الماضي القريب، والماضي البعيد، فإن قلت : قد قا) اختصَّ بالقريب ، . وهذا يعني أنَّ قد) تخصص الماضي الذي بعدها بالا ريب دون البعي ، وهذا ما يُفهم من ظاهر كلام النحاة آنف . وهذا لا يجعل زمن الفعل الماضي حال ، وإنما هو باقٍ على مضيّه، ولكنّها تجعل دلالته مقصورةً على الماضي القريب من الحال. والذي يتبين لي ــ والله أعلم ــ أنَّ المقصود بالتقريب:تقريب الفعل الماضي وجعله متّصلاً بزمن الحال، وليس مجرد تخصيصه بالماضي القريب.

وهناك قسم من النحاة ذكروا شرطاً لإفادتها التقريب، وهو أن يكون ملازماً معنى التوقع الذي أقرّه كثير من النحاة لـ قد) اعتماداً على كلام سيبويه الآتي، وهو في الحقيقة لم يفرد لها معنى التوقع، وإنما جعله مع التقريب يكمّل أحدهما الآخر ى ما سنبينه. والتقريب على قول هؤلاء لا تدل عليه (قد) إلّا إذا كان الفعل متوقّعاً.

ولعلَّ سيبويه أقدم من حدد هذا المعنى بدقّة في قوله : وأمّا قد ، فجوابٌ لقوله : لَمّا يفعل، فتقول : قد فَعَلَ، وزعم الخليل أنَّ هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر)، . والمقصود بذلك أنَّ هناك فعلٌ متوقع ينتظره السامع، والى حد اللحظة السابقة لقول المتكلم قد فعل ، فإنَّ الفعل المتوقع لم يقع بعد، وفي اللحظة التي يقول فيها القائل : قد فعل) يكون الفاعل قد ابتدأ جزءاً من الفعل، فيكون جزء من الفعل قد وقع حين نظر المتكلم فرأى الفعل

---

[١] الجنى الداني : ٢٧١ .

[٢] مغني اللبيب : ٢٧٢ .

[٣] كتاب سيبويه (تحقيق : عبد السلام هارون : ٢٢٣ .

قد ابتدأ بالوقوع، واستمر وقوعه أثناء نطقه (قد فعل . فالفعل فيه اتصال بين الماضي والحاضر. ونذكر مثالاً لبيان ذلك : لو أنّ شخصاً كان ينتظر ركوب الأمير، وهو متوقع من الأمير هذا الفعل، فسمع قائلاً يقول : (قد ركب الأمير)، فالقائل رأى الأمير قد ابتدأ بالركوب فقال : قد ركب الأمير)، وعند نطقه هذه الجملة فإنّ الأمير لا يزال مستمراً بالركوب، فصار جزء من الفعل ماضياً وهو عندما رآه بدأ بالركوب، والجزء الآخر حالاً وهو ركوب الأمير أثناء نطق المتكلم بالجملة.

فكلام سيبويه مفاده أنّ (قد) داخلة على فعل زمنه الماضي متصل بالحال، وعبّر عن هذا التداخل بقوله : لمّا يفعل)؛ لأنّ لمّا): تنفي الفعل المضارع، وتقلب زمنه إلى المضي المتصل بالحال)) . وهذا النفي المستمر من الماضي إلى الحال إذا أردنا الإجابة عليه، أي أردنا إثباته قلنا (قد فعل). فكأنه أراد أنّ قد) تدخل على فعلٍ ماضٍ مثبتٍ متصلٍ بالحال جواباً لقوله (لمّا يفعل)، أي: الفعل المنفي بـ(لمّا) التي تفيد نفي الزمن الماضي المستمر إلى الحال.

وقد بين ابن السرّاج هذا المعنى صراحةً بقوله : ((... فأمّا المستقبل والماضي، فلا يجوز إلّا أنْ تُدخل (قد) على الماضي فيصلح حينئذٍ أنْ يكون حالاً، تقول: رأيتُ زيداً قد ركب)، أي : راكباً، إلّا أنَّك إنّما تأتي بـ(قد) في هذا الموضع إذا كان ركوبه متوقعاً، فتأتي بـ(قد) ليُعلَم أنّه قد ابتدأ بالفعل، ومرَّ منه جزء. والحال معلوم منها أنّها تتطاول، فإنّما صلح الماضي هنا لاتصاله بالحاضر فأغنى عنه، ولولا ذلك لم يجز، فمتى رأيت فعلاً ماضياً قد وقع موقع الحال، فهذا تأويله، ولا بد من أن يكون معه (قد) ما ظاهرة، وإما مضمرة؛ لتؤذن بابتداء الفعل الذي كان متوقعاً)) . والذي أراه أنّ ابن

---

[١] معاني النحو : : ٦٢ .

[٢] الأصول في النحو : ١٦' .

السرّاج بالرغم من تحديده الدقيق معنى التقريب الا لازم م نى التوقع في قد ، إلّا أنَّ إيجابه لتقديرها مع كل فعلٍ ماضٍ خلا منها ووقع حالاً غيرُ دقيق، وإنما يختص ذلك بالأفعال متوقعة. وهو نفسه أشار إلى ذلك في بداية كلامه السابق حين قال : ((إلّا أنَّك إنّما تأتي بـ(قد) في هذا الموضع إذا كان ركوبه متوقعاً، فتأتي بـ(قد) ليُعلَم أنّه قد ابتدأ بالفعل، ومرَّ منه جزء)).

وممن ذهب هذا المذهب: الزمخشريّ الذي جعل من شروط التقريب أنْ يذ ون الفعل متوقعاً إذ قال : ((قد) تقرّب الماضي من الحال إذا قلت : (قد فعل)، ومنه قول المؤذن : (قد قامت الصلاة)، ولا بد فيه من معنى التوقع))[1] . وابن مالك بقول : أن تكون حرف تقريب، فتدخل على فعلٍ ماضٍ متصرّفٍ متوقّعٍ، أي : منتظرٍ، لتقرّبه من الحال))[2] . ومن هنا تضح لنا أنَّ الفعل إذا كان متوقعاً لا بد أن يلازمه معنى التقريب؛ لأنّ زمني الماضي والحال يتصلان فيه، وقد بيّنّا هذا في حديثنا عن قول سيبويه في التوقّع.

وتجدر الإشارة إلى أنَّ معنى التحقيق لا يفارق (قد) مع هذه المعاني، أو من دونها[3] .

والذي أراه أنَّ هناك لبس في إيضاح معنيي التقريب، والتوقع، فقسم من النحاة جعل التقريب معنًى على حِدة، والتوقع على حدة أيضاً. وقسم جعل التوقع مشروطاً بملازمة التقريب له. وقسم جعل من شروط التقريب أن يكون الفعل متوقعاً.

وخلاصة القول أنَّ (قد)الداخلة على الفعل ماضي الواقع حالاً لابد فيها من حد المعاني الثلاثة السابقة (التحقيق، و التقريب، و التوقع)، والتحقيق

---

[1] المفصّل : ٣٣ .

[2] شرح التسهيل ٢٣ .

[3] ينظر : معاني النحو ٦٩ .

لا يفارقها، وقد تجتمع فيها هذه المعاني في جملة واحدة، وقد ينفرد التحقيق وحده، أو يأتي معه معنى آخر ، إلّا التوقع فلا بد معه من التقريب، وهو يأتي في حالات مخصوصة ، حين يكون السامع منتظراً وقوع الفعل متوقعاً ذلك. ولا بد في التوقع من معنى التقريب، والتقريب لا يجب معه التوقع. وقد لخّص الرضيّ هذه المعاني بقوله : ((هذا الحرف إذا دخل على الماضي أو المضارع، فلا بد فيها من معنى التحقيق، ثم إنّه ينضاف في بعض المواضع إلى هذا المعنى، أي الماضي : التقريب من الحال مع التوقع، أي : يكون مصدره متوقعاً لمن تخاطبه، واقعاً عن قريب، كما تقول لِمن يتوقع ركوب الأمير (قد ركب)، أي : حصل عن قريب ما كنت تتوقعه، ومنه قول المؤذن : قد قامت الصلاة). ففيه إذن ثلاثة معانٍ مجتمعة : التحقيق، والتوقع، والتقريب، وقد يكون مع التحقيق التقريب فقط، ويجوز أن تقول : (قد ركب) لِمن لم يكن يتوقع ركوبه))[1] .

وبناءً على ما تقدم يتضح لنا أنَّ الفعل الماضي إذا كان متوقعاً فلا إشكال فيه إذ يتصل فيه زمن الماضي بالحال عند الإتيان به حالاً. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه : ماذا عن الأفعال الماضية التي وقعت حالاً ومعها (قد) وهي ليست متوقعة؟، وماذا عن الأفعال الماضية التي وقعت حالاً من دون قد ؟.

لقد مرّ بنا أنَّ (قد) تأتي مع الفعل الماضي الواقع حالاً لتقرّبه من زمن الحال، وبعبارة أدق : لتجعله مختصاً بالماضي القريب دون البعيد على قول من جعل التقريب تخصيص الماضي بالقريب دون البعيد ، كما بيّنا سابقاً أنَّه على هذا القول لا يعني أنّ الماضي أصبح حالاً، بل هو باقٍ على زمنه الماضي. فهو على هذا متساوٍ مع الماضي غير القريب من الحال (أي الذي لم تأتِ معه قد) من جهة كونهما ماضيين، ولا فرق بينهما سوى أنّ الأول

---

[1] شرح الرضي على الكافية (تحقيق : يوسف حسن عمر : ٤٤٤ ـ ٤٥ .

قريب من الحال، والثاني يحتمل القرب والبعد. أمّا على اعتبار التقريب تعبيراً عن تقريب الفعل الماضي مع جعله متّصلاً بالحال، فإنَّه لا إشكال في ذلك. ولكن لا يمكننا الجزم بأنَّ (قد) لا تأتي إلّا لهذا المعنى، وسنبيّن هذا إن شاء الله تعالى.

ولا بد لنا أنْ نعلم أنَّ ما جاء من الفعل الماضي حالاً من دون قد) كثير، بل كثير جداً، حتى وصفه أبو حيّان بالصحة والكثرة بقوله : ((ومذهب الكوفيين والأخفش أنّ الماضي يقع حالاً ولا يحتاج إلى إضمار قد)، وهو الصحيح، ففي كلام العرب وقع ذلك كثيراً)) . ووصفه بالكثرة فقط بقوله : ((... فقد جاء منه ما لا يُحصى كثرةً بغير (قد))) . وما كانت كثرته بهذا الحجم لا يمكن ردّه، كما لا يمكن تأويل كل ما جاء منه على إضمار قد) ــ في رأيي ــ، لا سيما أنّنا نعلم أنَّ الأصل عدم التقدير ، و خاصة مع الكثر ، فقد وقع في القرآن الكريم، وكلام العرب بكثرة من دون (قد) ومعها. ولم يذكر لنا النحاة ــ فيما أحسب ــ السبب أو المعنى الذي وقع لأجله الفعل الماضي حالاً، وإنما اكتفى قسم منهم بإجازة وقوعه من دون (قد) على الإطلاق، وحاول قسم آخر تأويله بأية سبيل ليدخله في زمن الحال، أو يقربه منه.

والحقيقة فيما أرى أنّ كل ما ذكروه من تقدير قد ، أو غير ذلك لا يغني عن حقيقة وقوع الفعل الماضي حالاً، فهو واقع بزمن الماضي مع (قد)، ومن دونها، وأنَّ مجيء (قد) معه أحياناً ، وعدم مجيئها هو لمعانٍ أُخر ، لا

---

[١] البحر المحيد : ١ ١٥ .

[٢] المصدر نفسه : ٣٠ .

[٣] ينظر : شرح التسهيل : ٨٦ ، الأشباه والنظائر : ١٢ .

[٤] ينظر : شرح الأشموني (مع حاشية الصبان : ٨٥ .

لتغيير زمن الفعل عن الزمن الماضي. وسنأتي على ذكر هذه المعاني إن شاء الله تعالى.

وقد ذكر العكبري في معرض رده على الكوفيين رأياً لم يُسبق إليه ، ولم ينتبه إليه مَن جاء بعده ــ فيما اطّلعت عليه من مصادر ــ، وإنْ كان قد قاله لا لإجازة وقوع الفعل الماضي حالاً من دون (قد)، وإنّما لتأكيد صحة مذهب البصريين، وللخروج من الإشكال في قوله تعالى : ﴿ ... **أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ** .. ﴾ (النساء : من الآية ١٠ ، فقال : والرابع : أنّ حَصْرَ صدورهم كان موجوداً وقت مجيئهم، فالفعل هنا لم ينقطع بخلاف مسألتنا)[1] .

وهذا الرأي لم يحل الإشكال، فالحال ــ كما ذكر ــ لم تنقطع، وكانت موجودة وقت مجيئهم، لكن السؤال يبقى قائم : لِمَ ذُكرتْ هذه الحال بلفظ الماضي مع كونها موجودة وقت المجيء ؟.

ومع ذلك فإنّني أرى أنّ هذا الرأي يمكن أن يكون مَنفذاً للخروج من الإشكال السابق، ويمكننا أن نؤسس على ضوءه قاعدةً تكون وسطاً بين ما ذكره كل من البصريين والكوفيين، فلا نوجب (قد) مع كل فعلٍ ماضٍ وقع حالاً وخلا منها، ونتأول كل ما جاء من ذلك، كما لا نجيز مجيئه من دونها على الإطلاق، وإنما يتحكم المعنى في ذلك كله.

وهذه القاعدة هي أنَّ مجيء الفعل حالاً بلفظ الماضي مقصود مع (قد)، ومن دونها، ومردّ ذلك كله إلى معنى عام يدل عليه الفعل الماضي في كلا التعبيرين، وهذا المعنى هو : تأكيد أنَّ هذه الحال ليست آنيّةً طارئة، وإنما هي موجودة في مَن اتصفوا بها قبل زمن ذكر الحال، واستمرت هذه الحال مع صاحبها ملازمة له حتى وقت ذكرها والتكلّم بها. وتأتي الحال بلفظ

---

[1] التبيين عن مذاهب النحويين : ٣٨٩ (مسألة ٣٠).

الفعل الماضي للدلالة على ، ذا المعنى ــ والله تعالى أعلم ــ. ثم تأتي قــ) للمعاني التي ذكرناها آنفاً، وهي : التحقيق، والتقريب، والتوقع.

والحقيقة أنّنا لا يمكن أن جزم بأن (قد) الداخلة علــى الفعــل الماضــي الواقع موقع الحال تفيد التقريب، وإنما تأتي للتحقيق ، ويأتي معــه لتقريــب أحيانا ، وأحياناً للتوقع ،أوكلاهما. وقد تجتمع فيها جميع هــذه المعــاني. أمــا القول إنَّ كل قد) تدخل على الفعل الماضي الواقع موقع لحال تفيد التقريب فإنه قول غير دقيق. ولا أرى وجهاً لتخصيصها بمعنى التقريب مع إطــلاق هذا التخصيص، إذ لا مانع من أن تكون للتحقيق فقط، فهو المعنى الوحيــد الذي لا يفارقها ، وهو ملازم لها مع المعاني الأخــرى ، كمــا أنَّــه يخــتص بالماضي حالاً كان أو غير ذلك، بل يأتي أحياناً مع المضارع، بينما ينحصر المعنيان الآخران في الفعل الماضي إذا وقع موقع الحــال فقــط. فــالتحقيق أوسع استعمالاً من بقية المعاني، فلا مانع يمنع من مجيء قد) مــع الحــال للدلالة عليه وحده. ويؤيد ذلك أنَّه ورد في كتاب الله عزَّ وجلَّ ما يدل علــى معنى التحقيق وحده في (قد) الداخلة على الفعل الماضي الواقع موقع الحال، ويتنافى مع معنى التقريب. من ذلك قوله تعالى : ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾ (آل عمران ٠ : . فلا يُعقل أنَّ الكبر بلغ سيدنا زكريا قريباً من قوله : أنّى يكون لي غــلام، بــدليل أنَّــه تعالى قال على لسان سيدنا زكريا ﷺ في آية أخرى : ﴿ ... **وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً** ﴾ مريم : من الآية ٠ (والتي من تى يعتو : ال س والقحول في المفاصل والعظام ، وقال الراغب هــو حالــة ولا ســبيل إلــى إصلاحها ومداواته))، ومؤكد أنَّ بلوغه الكبر متصلٌ بــزمن الحــال فــي الآية؛ لأنَّه وقت تكلمه لا يزال الكبر فيه، ولا يُعقل أن يكون كبر ثم انقطــع

---

[1] روح المعاني : ٦ ١٦.

عنه هذا الكبر، وهذا الاتصال يظهر جلياً من دون (قد).فمجيئها هنا للتحقيق والتوكيد ــ والله أعلم ــ. ومنه قوله تعالى : ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (البقـر ٥/ . فالفريق الذين كانوا يسمعون كلام الله تعالى، ثم يحرّ ونه هم أهل الكتاب، وهذا الفعل يقع منهم من قبل أن يبعث الله مصطفاه سيّدنا محمّد ﷺ ، فكيف يصح أن تكون حالهم هذه وقـ ت قريباً من زمن مخاطبته تعالى للمسلمين بقول : أفتطمعون أن يؤمنوا لك)، وإنما هو لتوكيد هذه الحال القديمة فيهم ــ والله أعلم ـ ، واتصال هذه الحد ل بزمن التكلم ظاهر من دون (قد)؛ إذ لم ينقطع التحريف منهم إلى يومنا هذ . ومنه قوله تعالى : ﴿ **قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ** ﴾ (ق ٨' . فتقديم الوعيد كان في الحياة الدنيا قبل أن يموتوا، وقول : لا تختصمو) في الآخرة، لا يُعقل أن تقديم الوعيد كان في الزمن القريب من زمن مخاطبته تعالى لهم بقول : ((لا تختصموا))، وإنما جيء بـ(قد) للتأكيد على تحقق هذه الحال منذ أن بعث لهم النبيين والله أعلم.

ولوعدنا إلى هذه الآيات للاحظنا أنَّ الأحوال كلها فيها دلالة على استمرار الحد ل نذ المضي، وحتى زمن ذكرها، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه سابقاً من أنَّ الفعل الماضي يأتي حالاً مع قد ، ومن دونها للدلالة على أنَّ تلك الحال قديمة، ومستمرة في أصحابها حتى وقت ذكرها. ففي الآية الأولى دلالة على أنَّ الكبر بلغه سابـ اً، واستمر بلوغه فيه حتى مع قول : ((ربِّ أنّى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر)). وفي الآية الثانية فإنَّ حال كونهم يسمعون كلام الله تعالى ثم يحرّفونه تحققت فيهم، واستمرت ملازمة لهم، وفي الزمن الذي خاطب الله تعالى المسلمين، وذكر لـ م تلك الحال، فإنَّها لا تزال موجودةً في فئة منهم. وفي الآية الا خرى نجد أنَّ حال تقديمه تعالى للناس

بالوعيد قائم منذ أرسل رسله حتى تقوم الساعة فيختصم الذين ظَلّوا، والذين اتبعوهم فأصابهم الظلال. والله تعالى أعلم.

وبعد أن ثبتت عندنا المعاني التي ذكرناها سابقاً لـ قد ، صار لزاماً علينا أن نجزم بأنَّ (قد) إنما تأتي مع الفعل الماضي الواقع موقع الحال لأحد هذه المعاني، أو لأكثرها، أو لها كلها. وقد بيّنّا سابقاً أنّه لابد من معنى التحقيق مع جميع المعاني الأخرى، كما بيّنّا أنَّه قد يؤتى بـ(قد) لمعنى التحقيق فقط، فهو المعنى الرئيس، ولا بد منه، أما التقريب، والتوقع فقد ينضمان إلى التحقيق، وقد لا يُرادان أصلاً. فما جاء من دون (قد)، فالذي أراه ــ والله تعالى أعلم ــ أنَّه لا بد أن يكون السياق دالاً على معنى التحقيق فأغنى عن ذكر (قد). أما التقريب، والتوقع فإنَّهما إنْ أُريدا في تلك الحال، ولم تذكر (قد) للدلالة عليهما، فإنَّنا نجد السياق دالاً عليهما، وإنْ لم يُرادا في تلك الحال، فإنَّنا نجد أنَّ السياق يدلّ على عدم إرادة التقريب في تلك الحال، لعدم قربها، وعدم إرادة التوقع فيها لعدم كونها متوقعة، فأغنت دلالة السياق على هذه المعاني عن ذكر قد ، فحُذفت وأصبح ذكرها زيادةً لا تأتي بجديد، والقرآن منزّه عن اللغو. والله أعلم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ التوقع بمفرده أو متلازماً مع التقريب، لايمكن تحديده فيما حُذفت منه(قد)، أو فيما ذُكرت معه، إلّا ما ورد فيه أثر في السيرة، أو التفسير، أو غيرهما، كالآية ٦١ من سورة المائدة) التي سنذكرها لاحقاً. إذ لا نستطيع أن نجزم بأنَّ هذه الحال، أو تلك كانت متوقعة، أو غير متوقعة؛ لأنّ التوقع أمر مخصوص في المخاطب، هل كان متوقعاً هذه الحال أم لا ، إلّا في بعض الحالات قد يمكن تحديد ما كان متوقعاً. فالتوقع معنى يأتي في حالات خاصة لا يمكن تعميمها؛ لأنّه يعتمد على السامع أو المخاطب، فقولنا : (قد قام زيد)، يحتمل أن يكون متوقعاً، إذا كان السامع متوقعاً قيام زيد. وفي الوقت نفسه يحتمل أن يكون غير متوقع إذا كان السامع غير منتظرٍ قيامه وغير متوقع ذلك. فما كان متوقعاً يَشْكل

تحديده عما لم يكن كذلك. يضاف إلى ذلك أنَّ انتفاء التقريب عن الحال يوجب انتفاء التوقع؛ لأنَّ التوقع لا بد معه من التقريب، وهذا لا يعني أنَّ كل ما كان قريباً كان متوقعاً، بل العكس صحيح. والله تعالى أعلم.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أنَّ الفعل الماضي الواقع موقع الحال إذا خلا من (قد) فإنَّ السياق يغني عن معانيها، أنَّنا لو أخذنا بعض ما جاء من الماضي الواقع موقع الحال مما خلا من (قد)، لوجدناه لا يحتاج إلى هذه المعاني؛ لدلالة السياق،والمعنى عليها، بل أحياناً نجد أنَّ دخولها لمعنى التقريب يفسد المعنى.

ومن أمثلة ما جاء من دون (قد)، قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً ﴾ (مري ١ ، فلا حاجة إلى معنى التحقيق؛ لأنَّ كونها عاقراً تحقق بعدم إنجابها، وعدم الإنجاب من عاقر أمر مؤكد لا يحتاج إلى تأكيده، ولا حاجة للتقريب، بل لو أُدخلت عليه(قد) وأُريد بها التقريب لما صلح المعنى أبداً؛ لأنَّ كونها عاقراً في الماضي القريب يتنافى مع عدم إنجابها؛ لأنَّه لو كان قريباً لأنجبت في الماضي البعيد قبل أن تكون عاقراً. و د استمرت هذه الحال فيها من الماضي والى حد اللحظة التي ذكرها الله تعالى على لسان سيدنا زكريا عليه السلام، بدليل تعجب سيدنا زكريا عليه السلام حين بُشِّر بسيدنا يحيى عليه السلام فأغنى اتصالها بزمن الحال عن ذكر (ق . والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَٰفِرِينَ ﴾ (هو ٢ . فكون ابن سيدنا نوح عليه السلام في معزل يدل عليه أنَّه لم يكن مع سيدنا نوح عليه السلام ومن معه في السفينة؛ لذلك ناداه. فانعزاله في وقت المناداة متحقق، وتحققه مفهوم من السياق. كما أنَّ انعزاله لم يكن متوقعاً؛ لأنَّه في لحظة كهذه ي رق الله عزَّ وجلَّ فيها

الأرض لا احد يتوقع أن ينعزل شخص، ويمتنع عن ركوب سفينة النجا . كما يغني السياق عن معنى التقريب؛ لأنَّه لم يؤمن منذ البداية مع من آمن مع سيدنا نوح ﷺ ، فهو في معزل مسبقاً عنهم. ثم أنّ استمرار انعزاله حتى زمن مناداة سيدنا نوح ﷺ له يُغني عن معنى التقريب؛ لأنَّه جعله متصلاً بالحال. والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَأَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ (يوسف ٦٥) . فحال كون بضاعتهم مردودة إليهم لا يحتاج إلى تحقيق ردّها؛ لأنَّها كانت معهم وهم يخاطبون أباهم، فردّها متحقق يقيناً. وردّها لم يكن متوقعاً؛ لأنّ المخاطب وهو أباهم لم يكن متوقعاً ردّها، وهم لم يكونوا متوقعين ردّها وإلّا لما ذهبوا بها وتحمّلوا عناء السفر. وردّها لم يكن في الزمن القريب من نطقهم بالحال؛ لأنَّها رُدّت مذ كانوا في مصر، وقطعوا المسافات الطويلة والأيام قبل أن يصلوا إلى أهلهم ويخبروا أباهم حال بضاعتهم. وحال ردّها متّصل منذ ردّها في مصر، حتى قوله : (هذه بضاعتنا رُدّت إلينا) وهذا يغني عن معنى التقريب؛ لاتصال الحال من الماضي إلى زمن التكلم. والله أعلم.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَتِلُوكُمْ أَوْ يُقَتِلُوا قَوْمَهُمْ .... ﴾ (النساء : من الآية ٩٠ . فحصر صدورهم متحقق؛ لأنَّها نزلت في بني مُدلج ــ كما ذكرنا سابقاً ــ، وهم جاؤوا النبيّ ﷺ ضائقة صدورهم عن قتال المسلمين، وقتال قومهم. ولا حاجة إلى التقريب؛ لأنَّه متحقق من دون (قد)، إذ لا يعقل أنَّهم ضاقت صدورهم، ثم بعد مدة من الزمن جاؤوا ليعاهدوا النبيّ ﷺ ، بل حين حصل الضيق في صدورهم جاؤوا ليحددوا موقفهم من القتال. يضاف إلى ذلك أنَّ مجيئهم

وتلك الحال مصاحبة هم من قَبل المجيء يدل على أنَّ الحال موجودة فيهم قبل أن يأتو ، وأنَّها اتصلت من الـ اضي إلى زمن الحال . والله تعالى أعلم.

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ** ﴾ (يوسف ٤٥ . فحال تذكره متحققة، بدليل أنَّه قال له : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون)؛ إذ لو لم يكن تذكره متحققاً لما طلب إرساله. وحال التذكر هذه قريبة، إذ كان الملك بحاجة إلى تأويل رؤياه، فلما تذكر سيدنا يوسف عليه السلام جاءهم طالباً إرساله، فلا يُعقل أنَّه تذكر وبعد مدة قال لهم أن يرسلوه؛ لأنَّ في ذلك خدمة للملك، ومعلوم أنَّ كثير من الناس يتسابقون بأسرع ما يمكنهم لخدمة الملوك طلباً لإكرامهم، أو القرب منهم. فدل هذا على أنَّ حال تذكره قريبة من طلب إرساله. وهي مستمرة معه منذ تذكَّرَ حتى قال (أنا أنبئكم...) فاتصلت بزمن التكلم. والله تعالى أعلم.

ومنه قوله تعالى : ﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (البقر ٢٨ . فالحال متحققة؛ لأنَّ كل إنسان حاله عدم، ثم خلقه الله تعالى، ثم يميته، ثم يحييه، ثم يرجعه إليه. وهي غير قريبة من زمن الحال؛ لأنَّ كونهم أمواتا ثم أحياهم ليس قريباً من زمن قول : (كيف تكفرون بالله)، وهي غير متوقعة بالنسبة للمخاطبين؛ لأنَّهم كافرون، فهم لا يؤمنون بأنَّ الله خلقهم، وأنَّه يميتهم، ولا يؤمنون بأنَّه يبعثهم يوم القيامة؛ بدليل قوله تعالى على لسانه : ﴿ **إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ** ﴾ (الدخان ٣٥ . فهم غير متوقعين لذلك، وإلّا لو توقعوه وآمنوا لما قال له : (كيف تكفرون ، لذلك ذكرهم بهذه الحال لعلهم يتفكرون ويؤمنون. والله تعالى أعلم. وهذه الحال مستمرة فيهم حتى زمن قول : (كيف تكفرون)، فكل واحد منهم حاله في الماضي ميتاً ثم حياه، فهو لا يزال حيّاً حين خاطبه، ثم يميته ثم يحييه

ثم يبعثه. فهي حال قائمة في كل إنسان من قبل أن يُخلق إلى أن يُبعث. والله تعالى أعلم.

والشواهد في ذلك كثيرة يطول الحديث عنها، ويصعب حصرها في هذا البحث؛ لذا نكتفي منها بهذا القدر . وما ذكرناه ينطبق عليـ ا كلها ــ فيما بدا لي والله تعالى أعلم ــ.

أمّا إذا لم تكن في السياق دلالة على هذه المعاني، وجب ذكر(قد) لإرادة المعنى الذي وُضعت لأجله. ولو حُذفت مما ذُكرت فيه لاختل المعنى، وصار فيه لبسٌ. والله تعالى أعلم. ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ** ﴾ (الأنعا ١٩ . وهذه الآية نزلت؛ لأنَّ بعض أهل الضلال من المشركين كانوا يقولون للمسلمين : إنَّكم تزعمون أنَّكم تعبدون الله، فما قَتَلَ اللّهُ أحق أن تأكلوه مما قتلتم انت ، فذكرت الحال في الآية مع قد) لإرادة معنى التحقيق؛ لأنَّه تعالى أراد أن يؤكد لهم أنَّ ما حُرّم عليهم، ما فصّله سابقاً في قوله : ﴿ **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ** ﴾ (المائد : من الآ ٣ ، وليس كما قال المشركون، فكان لا بد من ذكر(قد) ولا يمكن حذفها؛ لأنَّهم يعلمون ما فصّله الله تعالى سابقاً، وما أرادوه هو التأكد، فأكد لهم بـ (قد). والله تعالى أعلم.

---

[1] ينظر المزيد من الشواهد (على سبيل التمثيل لا الحصر : البقر : ٣ ، آل عمران : ٦، ، النسا : ٠ ، الأنعا : ٥ ، ٤ ، الأعراف : ٤٨ ، ٧١ ،يونس : ، يوسف : ٥ ، إبراهي : ٨ ، الكهف : ٧ ، الشعرا : ١١ ، النمل : ٣ ، الزمر : ٣ ، فصلت : ٣ ، الزخرف : ٦ ، الأحقاف : ٠ ،الطور : ٨ ، الإنسان : ٤ .

[2] الكشاف : ٧ .

ومثال ما ذكرت فيه قد) للدلالة على التقريب قوله تعالى : ﴿ ..**قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ...** ﴾ (البقر من الآيـ ٢٤٦ . وذكرت (قد) معه لإرادة معنيي التحقيق، والتقريب؛ لأنَّ جالوت وجنوده هم الذين أخرجوهم من ديارهم، واسروا من ملوكهم أربعمائة وأربعين رجلا ؛ لذلك طلبوا من نبيهم القتال. فإخراجهم من ديارهم قد تحقق بـ(قد)، مع دلالة التقريب؛ لأنَّه لا يُعقل أن يُخرجوا من ديارهم، ويُؤسر منهم هذا العدد، ثم بعد زمن بعيد يقاتلون لأجل ذلك، لا سيّما أنَّهم ليسوا قلّة؛ لأنَّ طالوت حدد أوصافاً لمن يقاتل معه، اجتمع له على هذه الأوصاف ثمانون ألفاً من الشباب . فقولهم : (ما لنا ألّا نقاتل...وقد أُخرجنا من ديارنا) أرادوا به القتال لقرب إخراجهم من ديارهم، واسر أبنائهم من الملوك، فأفادت (قد) التحقيق، والدلالة على اتصال زمن حال إخراجهم بزمن طلبهم القتال. ولو حُذفت قد) من الجملة الحالية، لاحتمل أنَّ إخراجهم كان بعيداً، ثم في ذلك الزمن أرادوا أن يثاروا، وهذا لا يُعقل من قوم بهذه القوة، وهم أنفسهم طالبوا بالقتال. والله تعالى أعلم.

ومما جاءت (قد) فيه جامعة للمعاني الثلاثة (التحقيق، والتقريب، والتوقع)، قوله تعالى : ﴿**وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ**﴾ (المائد ٦١ . وقد نزلت في ناس من اليهود كانوا يدخلون على سيدنا رسول الله ﷺ ، فيظهرون له الإيمان ويخفون في باطنهم الكفر، فيدخلون والكفر في قلوبهم، ويخرجون وهو فيها من دون أن يتّعظوا بشيء مما كان سيدنا رسول الله ﷺ يتكلم به ، وكان سيدنا رسول الله ﷺ

---

[1] ينظر : المصدر نفسـ ٢٣ .

[2] ينظر : المصدر نفسـ ٢٥ .

[3] ينظر : المصدر نفسـ ٢٠٢ .

يعلم ما في قلوبهم من النفاق، فتوقع أن يظهر الله ما كتموه فنزلت هذه الآية. وقد ذكر سبحانه حالين لهم هما (وقد دخلوا بالكفر ، و قد خرجوا به ، فجمعت قد) في هاتين الحالين معنى تحقق دخولهم بالكفر وخروجهم به، ومعنى التوقع؛ إذ كان ﷺ متوقعاً لإظهار حالهم. ومعنى التقريب، إذ كانت حالهم هذه قريبة من إظهار الله تعالى لها متصلة بزمن ذكره ، إذ كانتا الحالين اللتين دخلوا بهما فنزلت الآية لإظهارهما. وعبّر الزمخشريّ عن ذلك بقوله : ((...ولذلك دخلت (قد) تقريباً للماضي من الحال. ولمعنى آخر : وهو أنَّ إمارات النفاق كانت لائحة عليهم، وكان رسول الله ﷺ متوقعاً لإظهار الله ما كتموه، فدخل حرف التوقع))[1] .

والحال في الآيات السابقة مستمرة من زمن اتصاف صاحب الحال بها، ومتصلة بالزمن الذي ذُكرت فيه في هذه الآيات؛ لأنَّها لا تزال قائمة في اللحظة التي ذكرها سبحانه وتعالى فيها. والله أعلم.

---

[1] المصدر والصفحة أنفسهما.

نتائج البحث

لقد توصل هذا البحث إلى النتائج الآتية :

. إثبات معنى التحقيق لـــ(قد) مع الفعل الماضي الواقع موقع الحال، وأنَّها تأتي معه أحياناً لهذا المعنى فقط من دون أن يضاف إليها معنى آخر. وقد أوردنا شواهد من القرآن الكريم على ذلك.

. التوصل إلى معنى عام يدل عليه الفعل الماضي الواقع موقع الحال، وهو أنَّ المراد من هذه الحال أنَّها موجودة فيمن اتصفوا بها قبل زمن ذكرها، وظلت ملازمة لهم حتى وقت ذكرها، فاتصلت بالحال.

. ما لم تذكر معه (قد)، فإنَّ سياق الآية يدل على معنى من معانيها، أو أكثر، أو يدل على انتفاء ذلك المعنى، فتغني دلالة السياق على معاني (قد)، عن ذكرها.

. رَدَّ هذا البحث كثيراً من الآراء إلى أصحابه ، وحدد عدداً من الأقوال التي نُسبت إلى بعض النحاة وهم لم يقولوا بها، ونجد هذه الآراء مبثوثة في صفحات هذا البحث.

المصادر والمراجع

. القرآن الكريم.

. الأشباه والنظائر في النحو: جلال الدين السيوطي (د ١١ ،)، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ، ٤٢٠ ـ ٩٩٩ م.

. الأصول في النحو: أبو بكر محمد بن سهل بن السراج البغدادي (د ١٦ هـ ، تحقيق د.عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ، ٤٢٠ هـ ٩٩٩ م.

. الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين: أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري(د ٧٧)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، نشر مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، ط . ٩٥٣ م.

. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: عبد الله بن عمر البيضاوي د ٩١)، دار الفكر، بيروت، د. ت.

. البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (د ٤٥ هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، د.زكريا عبد المجيد النوقي، د.أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٤٢٢ هـ ٠٠١ م.

. التبيان في إعراب القرآن: أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري(د ١٦)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاوه، د.ت.

. التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين: أبو البقاء العكبري (ت ١٦ هـ ، تحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٤٠٦ ، ٩٨٦ .

. الجنى الداني في حروف المعانيِ : حسن بن قاسم المـــرادي (د ٤٩ ﻫ)، تحقيق طه محسن، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعــة الموصــل، ٣٩٦ هــ/ ٩٧٦ م.

٠ .حاشية الخضري على شرح ابـــن عقيـــل : الشـــيخ محمـــد الخضـــري (د ٢٨٧ ـ)، ضبط وتصحيِ : يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ، ٤٢٤ هــ ٠٠٣/م.

١ . حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : أبو العرفــان محمد بن علي الصبان(د ٢٠٦ هــ)، ضبط وتصحيِ : إبراهيم شمس الدين، منشورات محمـــد علـــي بيضـــون، دار الكتـــب العلميـــة، بيـــروت، ، ٤١٧ هــ ٩٩٧ م.

٢ . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانيِ : العلامـــة أبـــو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوســـي (ت ٢٧٠ هــــ)، دار إحيـــاء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٣ . شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : بهاء الدين عبـــد الله بـــن عقيـــل العقيلي د ٦٩ ﻫ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ٤ ٣٨٤ ، ٩٦٤ م.

٤ . شرح الأشموني على ألفيه ابن مالك، والمسمى : منهج السالك إلى ألفية ابن مالك : أبو الحسن علي بن محمد الأشموني(د ٢٩ هـــ)، طُبـــع مـــع حاشية الصبان.

٥ . شرح التسهيل : ابن مالك(د ٧٢ هــ)، تحقيق محمد عبد القادر عطـــا، طارق فتحي السّيّد، منشورات محمد علي بيضـــون، دار الكتـــب العلميـــة، بيروت، ، ٤٢٢ هــ ٠٠١/م.

٦ . شـــرح التصـــريح علـــى التوضـــيِ : الشـــيخ خالـــد بـــن عبـــد الله الأزهري(د ٠٥ هــ)، تحقيق محمد باسل عيون السود، منشـــورات محمـــد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ، ٤٢١ هــ ٠٠٠/م.

٧ . شرح الرضي على الكافيـ : رضي الدين محمد بن الحسن الأستراباذي (ت ٨٦ هـ)، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر، مؤسسة الصادق، طهران، د.ت.

٨ . شرح المفصل : موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (د ٤٣ ،(، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، د.ت.

٩ . الغرة المخفية في شرح لدرة الألفيـ : أبو العباس احمد بن الحسين الموصلي الضرير المعروف بابن الخباز (د ٣٩ ،(، تحقيق حامد محمد العبدلي، مطبعة العاني، بغداد، نشر دار الأنبار، بغداد، الرمادي، ، ، ٤١٠ ، ٩٩٠ م.

٠' . كتاب سيبويـ : أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(د ٨٠ هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط ، د.ت.

١ . الكشاف عن حقائق غو مض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأو ل : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٣٨' هـ)، ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منير آل زَهوي، دار الكتاب العربي، بيروت، ، ، ٤٢٧ هـ ٠٠٦' م.

٢ . مختصر في شواذ القراءات من كتاب البديع لابن خالويه (د ٧٠' ،(، نشره ج. برجشتراسر، دار الهجرة، د.ت.

٣ . مشكل إعراب القرآز : مكي القيسي د ٣٧ ،(، دراسة وتحقيق حاتم صالح الضامن، منشورات وزارة الإعلام العراقية، ٩٧٥ م.

٤' . معاني القرآز : أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (د ٠٧' هـ)، تقديم وتعليق إبراهيم شمس الدين، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ، ، ٤٢٣ هـ ٠٠٢' م.

٥' . معاني القرآن الكرير : أبو جعفر النحاس (ت ٣٨' هـ)، تحقيق محمد علي الصابوني، منشورات جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ، ، ٤٠٩ ، .

٦' . معاني القرآن وإعراب : أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج (د ١١' ، (، تحقيق د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة، ٤٢٦ هـ ٠٠٥'م.

٧' . معاني النحو : د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ، ' ، ٤٢٤ ، ٠٠٣'م.

٨ . مغني اللبيب عن كتاب الأعاريب : ابن هشام الأنصاري(د ٦١' هـ)، تحقيق بركات يوسف هبود، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ، ' ، ٤٢٠ هـ ٩٩٩ م.

٩ . المفصل في صنعة الإعراب : أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت ٣٨' هـ)، تحقيق د.علي بو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ، ، ٩٩٣ م.

٠' . المقتضب : أبو العباس المبرد(د ٨٥ ، (، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت، د.ت.

١' . النشر في القراءات العشر: الحافظ أبو الخير بن الجزري(ت ٣٣، هـ)، تصحيح علي محمد الضّبّاع، مطبعة مصطفى محمد، مصر،نشر المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ت.